

العالم ينتظر البديل

بقلم : أ.د. عماد الدين خليل

في منتصف الخمسينيات بلغت الحضارة الغربية قمة منحناها ، وكانت مقولة أرنولد توينبي حول تفوقها ، واحتمالات ابتلاعها للحضارات المنهارة التي تدور في فلكها ، وبضمنها الإسلامية ، أمراً معقولاً ... وكانت قيادتها قد آلت إلى أمريكا ، التي بدت بالمقارنة مع الدول الاستعمارية العتيقة ، كبريطانيا وفرنسا ، اللتين سامتا الشعوب المستضعفة المرّ والعذاب والابتزاز ، وبالمقارنة مع الاتحاد السوفياتي بقسريته وآليته العاتية ، بمثابة الدولة المحرّرة الواعدة بالخلاص !!

كانت ، بالنسبة للكثيرين من المبهورين بالحضارة الغربية ، تمثل الوجه الجميل ، وكانت أمريكا نفسها ، من أجل التحقق بزعامتها ، وإغواء دول العالم الثالث ، والحلول محل الاستعماريات القديمة ، تحرص على تلميع هذا الوجه ، بحيث ان كتاباً ك (أمريكا التي شاهدت) للشهيد سيد قطب ، كتب في تلك المرحلة (بداية الخمسينيات) يسطى عليه من قبل المخابرات المصرية ، ويمنع نشره ...

لم تكن أمريكا مستعدة لتشويه وجهها (الجميل) وهي مقبلة على تدشين قيادة العالم ، وإخراج منافساتها من الساحة ...

لكن بعد مرور أقل من عقد فحسب ، وبخاصة في أعقاب اغتيال (كندي) وتسلم (جونسون) السلطة ، ومجازفة فيتنام ، وانكشاف الوجه القبيح لأمريكا ، واكتشاف دورها في العديد من الانقلابات العسكرية في دول العالم الثالث ، تغيّرت الصورة ، ولم تعد أمريكا نفسها تكتم تشويه صورتها ، بعد أن تحققت بالقوة والسيطرة ، بحيث أن رواية تؤلف بعنوان (الأمريكي البشع) تحكي عن مخازيها في فيتنام ، تأخذ طريقها للنشر دون أن تكثر الجهات الأمريكية.

ثم تجيء المرحلة التالية ، بعد سقوط الاتحاد السوفياتي ، وتقرّد أمريكا بقيادة العالم ، تحت مظلة النظام الدولي الجديد ، حيث لم تعد تكثر بأية صورة مشوهة قد تعطى عنها ، بل على العكس ، انها تتعمد ، كما حدث في عهد بوش الابن ، أن تكشف عن هذا الوجه لكي تقول للناس : ليس ثمة ما يتهددني ... فأنا سيّدة العالم !!

على المستوى الحضاري تغيّرت المعادلة ، بعد إذ وصلت الحضارة الغربية الطريق المسدود ... والآن فان العالم ينتظر البديل ، قصر الوقت أم طال ، ولن يكون هذا البديل سوى إسلامياً ، أو في الأقل مشاركة إسلامية في إعادة صياغة مصير العالم ، فيما يعترف به ويؤكدده

مفكرو الغرب وكتابه وفلاسفته ، بعد إذ درسوا كل صيغة واستعرضوا كل بديل فلم يجدوا فيها الجواب ...

فحن إذن المطالبون بصياغة المشروع الحضاري البديل وتقديمه للبشرية ، بعد إذ أخفقت كل النظم والمبادئ الغربية الواحدة تلو الأخرى : نظرية تفوق الرجل البيض ، الاستعماريات العتيقة ، الشوفينيات الكبرى ، الوجودية ، الماركسية اللينينية ، ثم ها هوذا النظام الرأسمالي يتعرض لاهتزازات عنيفة ، ويصل إلى طرق مسدودة.

وإذا كان عالم الإسلام في خمسينيات القرن الماضي يلفظ أنفاسه ، ويكاد يتلاشى في حضارة الغرب ، فإنه اليوم يجد ذاته ، أو - بعبارة أدق - يتحتم أن يجد ذاته ، لأن العالم ينتظر منه إشارة الخلاص ... وتلك هي سنة الله في خلقه ، ومداولة الأيام بين الناس ...

إن محفّزات المحاولة كثيرة ومن بينها وصول الحضارة الغربية إلى الطريق المسدود ، وعجز النصرانية المحرّفة ، وانقغال اليهودية ، ولا واقعية البوذية والأديان الشرق أقصوية ، وانهايار الوضعيات الاستعمارية ، والشوفينية والوجودية والشيعوية ، والهزّات العنيفة التي أصابت الرأسمالية ... فضلاً عن وحدة العالم والتبادل السريع للتأثير في ظل العولمة ، وازدياد الوعي وتراكم الخبرة ، وتطابق مؤشراتنا مع المعطى الإسلامي ... وقوة الجذب في الإسلام ، وانسجامه مع مطالب الإنسان ... هذا إلى قيمة التوحيد الكبرى في هذا الدين باعتبارها عملاً تحريراً في مجابهة كل صنوف الضغط ، والابتزاز ، والاستلاب ، والقهر ، والاحتميات بأشكالها وصنوفها كافة ...

ولكن ، وبالتأكيد فإن هناك في المقابل معوّقات كثيرة لا يكاد يحصيها عدّ تقف ، أو ستقف في مواجهة المحاولة ... بعضها يجيء من الداخل من مثل التشبث بالمظهرية الدينية بعيداً عن الجوهر والمغزى ، وانعدام الثقة بالذات ، وغياب الفقه الحضاري ، وعدم اختيار عناصر التأثير في العقل والوجدان الغربي ، وضياع أولويات العمل وخطط وبرامج التنفيذ ، وإعاقة النخب المتغربة والزعامات المعادية للدين في الديار الإسلامية.

وبعضها الآخر يجيء من الخارج متمثلاً بدور الاستعمار الجديد والغزو الثقافي ... والجهود الأسطورية التي تبذلها وترسم لها القوى الدينية المضادة صليبية وصهيونية ...

لكن هذا كلّه لا يبزّر الكف عن المحاولة ، ولا يدفع إلى وقفها عن المضي إلى أهدافها المشروعة لصالح الإنسان في العالم كله ... فقط إذا خلصت النية وأحسنّت صيغ العمل ...